آداب سلفية

آداب سلفية

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الدار العالمية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع

٢٠١١/١٥٦٧٩م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-5025-30-2

الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٦٥٥٢١١٨ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E-mail: alamia_misr@hotmail.com

آداب سلفية

كتبه
حامي بن محمد بن إسماعيل الرشيدي
غفر الله له ولوالديه

الدار العالمية للنشر والتوزيع

آداب سلفية

إذا فسد أخلاق القوم ... فأقم عليهم مندبًا وعويلا

***

ما من كاتبٍ إلا ستبقى ... كتابتُه وإن بليت يداه

فلا تنسخ بخطِّك غير علم ... يسُرُّك في العواقب أن تراه

***

إذا اعتللتُ فَكُتُب العلم تشفيني ... فيها نزاهة الحاظي وتَزْيِيني

إذا شكوتُ إليها الهمَّ من حزن ... مالت عليَّ تُعزِّيني وتُسليني

إلفي وحلفي وأُنسي حين يُؤنِسُني ... فاق الصديق الذي بالودِّ يُصفيني

حسبي الدفاتر من دنيا قَنَعْتُ بها ... لا ابتغي بدلًا منها ومن ديني

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليكم بملاحظة سير القوم ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، والاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم كما قال:

فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلي أرى الديار بسمعي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله تعالى، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

[آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

[الأحزاب:٧٠-٧١]

أما بعد:

فإن خير الكلام؛ كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فقد كثُر الخلاف في الآونة الأخيرة بين الجماعات والدعوات والفرق، وشمَّروا جميعًا عن ساعد الجد في تحصيل المشاكل، وسابقوا الريح في نشر الخلاف والفرقة، مما ساعد على شحن القلوب بالعداوات والضغائن والأحقاد، وتَحوُّل الولاء والبراء من القوم إلى إخوانهم من المسلمين، ووصل حتى لحق بالعلماء والمشايخ، وانصرف القوم بولائهم وعداوتهم إلى غير حيث قال الله تعالى وقال رسوله ﷺ.

وبعد أن كان المسلم يوالي من يوالي من المسلمين والموحدين، سار يوالي من نهى الله عن ولايتهم، ويعادي من نهى الله عن معاداتهم.

ولو كان عند القوم إيمان صحيح؛ لردُّوا هذا النزاع والخلاف إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

وهذا الخلاف سوف يأتي على الإسلام بشَرٍ مستطير، وسوف يحصد ما بقي من الدين، وأصبح العوام من المسلمين في حيرة من أمرهم، لأنهم ينظرون إلى الأخوة الدعاة على أنهم سبب خلاصهم

من المشاكل المتراكمة؛ من ظلم الحكام، وركون علماء السُّلطة إلى السلطة، حتى فسد ما بينهم وبين الناس، فوجدوا في العلماء والمشايخ الذين يُعلِّمون الناس -سواء كان ذلك في القنوات الإسلامية أو غيرها من الأشرطة والاسطوانات والرسائل والكتب- الملجأ والملاذ إلى أمور دينهم ودنياهم.

فلجأ فريق من هؤلاء المخالفين إلى تحطيم الرموز، وهدم الصروح، والطعن في العلماء والمشايخ، ولجأ فريق آخر مخالفة الشريعة بفهم مخلوط مغلوط مَعْجُون بجهل وسَفَهٍ، وانتكاس في الفطرة.

وتقسَّم المسلمون إلى أحزاب شتَّى، وكل حزب بما يدعو إليه من الفرحين.

وفي نظري القاصر يرجع هذا الخلاف إلى الآتي:

أولًا- سوء التربية: وهذا يكفي في إفساد أي مجتمع صالح، وليس في إصلاح مجتمع فاسد.

ثانيًا- عدم فهم الإسلام وشريعة الإسلام فهمًا صحيحًا:

ويرجع ذلك إلى أن أكثرهم تَعلَّموا عن طريق الكتب، ولم يجالسوا أهل العلم حتى يتخلقوا بأخلاقهم، ويتأدبوا بأدبهم.

كـما أن تلقـي العلم من العلـماء يصحح الفهم المُعْـوَجَّ، ويقوِّم السلوك غير المعتدل.

كما أنه ينفي التحريف والتصحيف.

فأكثر مَنْ على السـاحة من الخطبـاء والمتكلمين ما زالوا يتلون آيات القرآن خَطأً، كما أنهم لا يعرفون من السُّنَّة إلا اسمها ورسمها، وتَذَبَّب أكثرهم قبل أن يتحصروا!

وبعد؛

فهذه رسـالة في آداب السـلف ومعاملاتهم، وأخلاقهم، وهي رسـالةٌ عاجلة إلى كل من يهمه رفعة الدين، ونشر الدعوة، وسميتها بـ«آداب سلفية».

المؤلف

٢٠/ ٩/ ٢٠١١م

مدخل

اعلم أيها المسلم أن الإسلام كله محاسن، جمع من كل خلق أعلاه، وكل فضيلة أسماها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥].

أي: لا أحسن منه، لأنه قد جمع كل المحاسن، وحوى كل الفضائل.

والقرآن الكريم ما ترك فضيلة إلَّا وأمر بها، ولا رذيلة إلا ونهى عنها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

[النحل:٩٠]

وجاء النبي ﷺ مُتمِّمًا لهذه الأخلاق، ومكملًا لهذه الفضائل، فقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وأمر النبي ﷺ بمعالي الأخلاق، ونهى عن سفاسفها.

ولهذا مدحه ربه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وكان ﷺ خلقه القرآن؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها.

ومع هذا كان يقول كما أخبرتْ عنه عائشة رضي الله عنها: «**اللهم كما أحسنتَ خَلْقِي فَأحسن خُلقي**» (صحيح).

وقال ﷺ: «**ما نحل والدٌ ولده أفضل من أدب حسن**» (حسن).

وقال ﷺ: «**خياركم أحسنكم أخلاقًا، الموطَّئُون أكنافًا**» (صحيح).

وقال ﷺ: «**أربع خلال إذا أُعْطِيتَهُنَّ فلا يضرك ما عُزِل عنك من الدنيا؛ حُسن خَليقة، وعفاف طُعمة، وصدق حديث، وحفظ أمانة**» (حسن).

وإياك أخي الحبيب من الفحش عند المخاطبة أو المخالفة، فقد قال ﷺ: «**ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، وما كان الحياء في شيء قط إلا زانه**» (حديث صحيح).

والفحش في الخطاب دليل على سُوء الخلق، وكثير من المخالفين لا يتحاكمون إلى كتاب وسنة، وإنما يتحاكمون إلى جهالات، ثم إلى مشايخ غير معروفين بالعلم يقدمون محاباة الناس على الشرع.

أخي في الله!

عندما أخبر الرسول ﷺ خديجة بخبر الوحي قالت له: «أبشر، فو الله! لا يخزيك الله أبدًا، والله! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتُكْسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مسلم»(٢/ ١٧٠): «قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: معنى كلام خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنك لا يصيبك مكروه؛ لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل، وذكرت ضروبًا من ذلك، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق، وخصال الخير؛ سبب السلامة من مصارع السوء».

وحسب المؤدِّبين وأصحاب الأخلاق الحسنة شرفًا ورفعة؛ أنهم متخلقون بأخلاق الله تعالى.

قال الإمام الطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في تعليقه على حديث: «**ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه**» قال: «وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة السيئة مفتاح كل شر، بل هي الشر كله، والأخلاق الحسنة مفتاح كل خير، بل هي الخير كله».

صحب أيوبَ السختيانيَ رجلٌ في طريق مكة، فآذاه الرجل بسوءِ خُلقه، فقال أيوب: «إني لأرحمه، نحن نفارقه، ويبقى معه خُلُقُه».

وحسن الخلق يحمل على حسن الأدب والفضائل الجميلة، وكرم الشمائل.

والأدب عنوان سعادة العبد في الدارين، وفلاحه في الحياتين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلَّةُ أدبه عُنوان شقاوته وبواره، فما استُجْلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجْلب حرمانها بمثل قِلَّة الأدب».

والأدب مفتاح الخير كله، كما أن قلته مفتاح الشر كله.

قال يوسف بن الحسين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالأدب تتفهَّمُ العلم، وبالعلم يصحُّ لك العمل، وبالعمل تنالُ الحكمة، وبالحكمة تفهم الزُّهد، وبالزهد تترك الدنيا، وترغب في الآخرة، وبذلك تنال رضا الله تعالى».

أقول: الآن علمتُ سر اختفاء العلم وانعدام الحكمة.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تهاون بالأدب؛ عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن؛ عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض؛ عوقب بحرمان المعرفة».

قلت: والله هذا كلام حكيم وضع يده على موضع الداء، فالقوم عندنا محرومون من صلاة الجماعة، ولا يدركون منها إلا التشهد الأخير؛ غالبًا، لكنهم في شهوة الكلام شديدوا النهم.

قال محمد بن إبراهيم البوشنجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله تعالى ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قلت: والله إن بضاعة القوم هذه الأيام؛ الكذب والمحاباة والمجاملات على حساب الدين.

والأخوة عندنا، بل وفي كثير من بلاد المسلمين أحوج إلى الأدب بدلًا من العلم، بل أحوج إليه من الطعام والشراب.

عن حَجَّاج بن أرطأة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إن أحدكم إلى أدبٍ حَسَنٍ أحوج منه إلى خمسين حديثًا».

قلت: هذا كان في زمن الأدب، أما اليوم فهم يحتاجون الأدب بدلًا من العلم كله.

وعن زكريا العنبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «علم بلا أدب، كنار بلا حطب، وأدب بلا علم، كروح بلا جسم».

وعن إبراهيم بن حبيب الشهيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «قال لي أبي: يا بني! ائت الفقهاء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث».

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال لي مخلد بن الحسين: نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث».

قلت: كل هذه الأقوال قيلت في زمن الأدب والعلم، فكم يكون قدر الأدب الذي نحتاجه في زمن قلة الأدب وانعدامه؟!!

كان محمد بن عبيد الطنافسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لأصحاب الحديث: «ألا تكونون مثل عيسى بن يونس؟ كان إذا أقبل إلى الأعمش ومعه الشباب والشيوخ ينظرون إلى هديه وسمته».

وكان عليُّ بن المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغير واحد يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوا شيئًا إلا أن ينظروا إلى هديه وسمته.

وعن مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم».

قال: وبعث ابن سيرين رجلًا فنظر كيف هديُ القاسم وحالُهُ».

ليتك أخي تقول مثل هذا القائل: لا أعود.

فعن إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال:

«نظر إبراهيم بن أدهم إلى رجل يُكلم رجلًا؛ فغضب حتى تكلم بكلام قبيح، قال: فقال له: «يا هذا اتق الله، وعليك بالصمت والحلم والكظم» قال: فأمسك. ثم قال له: بلغني أن الأحنف بن قيس قال: كنا نختلف إلى قيس بن عاصم فنتعلم الحلم كما نتعلم العلم. قال: فقال له: لا أعود».

وأحدنا إذا قيل له: اتق الله؛ أخذته العزة بالإثم.

أخي الحبيب هل تستطيع أن تكون مثل هذا الإنسان الذي أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال: «**ليس شيءٌ خيرًا من ألفٍ مثله إلا الإنسان**» (الصحيحة [٢١٨٣]).

قال الإمام المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يشير ﷺ إلى أنه قد يبلغ بقوة إيمانه وإيقانه وتكامل أخلاق إسلامه إلى ثبوت في الدين، وقيام بمصالح الإسلام والمسلمين بعلم يكسبه وينشره، أو مال يبذله أو شجاعة يسد بها مسدَّ ألف».

أخي لن أعلق على هذا الحديث، ولن أعمل مقايسة لنا عليه، وإلا فلن يصل أحدنا إلى خُمُس إنسان.

قال الناظم:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمرٌ عَنَى

وقال الزمخشري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتًا ... لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

وقال سلفنا الصالح: «الأدب خير ميراث».

ولهذا قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجالس القوم أحب إليَّ من كثير من الفقه».

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

صُنِ النفس واحملها على ما يُزينُها ... تعِش سالمًا والقولُ فيك جميلُ

فلا تُرينَّ الناسَ إلّا تجمُّلا ... إن نابك دهرٌ أو جفاك خليلُ

قال محمد بن يعقوب: «كمال العلم بالعلم، وجماله بالأدب، وتصفيتُه بالورع، وقبوله بالإخلاص».

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «اطلب الأدب فإنه زيادةٌ في العقل، دليلٌ على المروءة، مؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ومالٌ عند القلة».

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم يتأدب للوقت فوقته مقت».

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء».

قال ابن أبي الدنيا في «أدب الدنيا والدين» (ص٢٤١-٢٤٢): (اعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى شِيَمٍ مُهْمَلَةٍ، وَأَخْلَاقٍ مُرْسَلَةٍ، لَا يَسْتَغْنِي مَحْمُودُهَا عَنْ التَّأْدِيبِ، وَلَا يَكْتَفِي بِالْمُرْضِي مِنْهَا عَنْ التَّهْذِيبِ؛ لِأَنَّ لِمَحْمُودِهَا أَضْدَادًا مُقَابِلَةً يُسْعِدُهَا هَوىً مُطَاعٌ وَشَهْوَةٌ غَالِبَةٌ، فَإِنْ أَغْفَلَ تَأْدِيبَهَا تَفْوِيضًا إلَى الْعَقْلِ أَوْ تَوَكُّلًا عَلَى أَنْ تَنْقَادَ إلَى الْأَحْسَنِ بِالطَّبْعِ أَعْدَمَهُ التَّفْوِيضُ دَرَكَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَأَعْقَبَهُ التَّوَكُّلُ نَدَمَ الْخَائِبِينَ، فَصَارَ مِنْ الْأَدَبِ عَاطِلًا، وَفِي صُورَةِ الْجَهْلِ دَاخِلًا؛ لِأَنَّ الْأَدَبَ مُكْتَسَبٌ بِالتَّجْرِبَةِ، أَوْ مُسْتَحْسَنٌ بِالْعَادَةِ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ مُوَاضَعَةٌ.

وَذَلِكَ لَا يُنَالُ بِتَوْقِيفِ الْعَقْلِ وَلَا بِالِانْقِيَادِ لِلطَّبْعِ حَتَّى يُكْتَسَبَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْمُعَانَاةِ، وَيُسْتَفَادَ بِالدُّرْبَةِ وَالْمُعَاطَاةِ.

ثُمَّ يَكُونُ الْعَقْلُ عَلَيْهِ قَيِّمًا وَزَكِيُّ الطَّبْعِ إلَيْهِ مُسَلِّمًا، وَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ مُغْنِيًا عَنْ الْأَدَبِ لَكَانَ أَنْبِيَاءُ الله تَعَالَى عَنْ أَدَبِهِ مُسْتَغْنِينَ، وَبِعُقُولِهِمْ مُكْتَفِينَ».

هل مات هذا الإنسان؟

مرَّ قول النبي ﷺ: «**ليس شيءٌ خيرًا من ألفٍ مثله إلا الإنسان**».

هل مات هذا الإنسان، أم ما زال على قيد الحياة؟ وهل مات بعضه أم كُلُّه؟

فأنا أبحث عن إنسان موصوف على لسان النبي ﷺ بهذا الوصف.

أبحث عن إنسان مات رُبعه أو نِصْفُه، ولم يمت كله.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلفٍ كجلد الأجْرَب

قالت ذلك أو هذا في زمن كثر فيه الصحابة، والناس كان ناسًا فيهم الأدب والأخلاق والإيمان والهمم العالية.

فماذا لو كانت تُعَايش أمثالنا؟!!

قال أبو نُعيم الفضل بن دُكَيْن رَحِمَهُ اللَّهُ شيخ أحمد ويحيى بن معين والبخاري وغيرهم: «كثر تعجُّبي من قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لكني أقول:

ذهب الناس فاستقلوا وصِرنا ... خلفًا في أراذل النَّسْنَاسِ

في أناسٍ نَعُدُّهم من عديد ... فإذا فُتِّشوا فليسوا بناس

وأقول أنا مثل ما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ذهب الناس وبقي النَّسْناسُ، فقيل: وما النَّسناسُ؟ قال: الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس».

قال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الناس ورقًا ولا شوك فيه، وإنهم اليوم شوك لا ورق فيه، إن سابيتهم سابوك، وإن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك».

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب الناس وبقي النَّسناس، وما أراهم بالناس، وإنما غُموا في ماء الناس».

وماذا أقول بعد قول الحسن البصري التابعي الجليل: «لقد أدركتُ أقوامًا لو رأو خياركم لقالوا: ما لهم من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: أما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب؟».

فأنا أقول: «أما يؤمن هؤلاء القوم بيوم الحساب؟!!».

أبحث عن أناس بحث عنهم عمر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنت متى شئت أن أجد من يَعِدُ ويُنجزُ وجدته، فقد أعياني من يَعِدُ ولا ينجز».

أنا لم أجد إلا من يَعِد ولا يفكر في الإنجاز.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكانوا يفعلون ولا يقولون، فصاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون.

وكنت أتمنى أن يترك لي من قوله قولًا أقوله، فقد مضى زمن هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء من مئات السنين، فماذا بقي من رائحة الناس؟!

قال يونس بن عبيد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اثنان ما في الأرض أقل منهما، ولا يزدادوا إلا قلة؛ درهم يوضع في حق، وأخ تسكن إليه في الله عَزَّوَجَلَّ».

عن سهل بن عبد الله التَّستري الزاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «الناس على أربعة طبائع؛ على طبع الأبالسَةِ، والشياطين، والبهائم، والملائكة.

فأما الأبالسة؛ فالذين يؤذون الناس ويعذبونهم.

وأما الشياطين؛ فالسَّحرة، والكهنة، والمنجمون.

وأما البهائم؛ فإنهم يأكلون، ويشربون، وينامون.

وأما الذين هم مثل الملائكة؛ فالذين يقطعون أوقاتهم بالذِّكر والطاعات».

عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّهُ كان إذا مرَّ بالمَكْتَبِ قال للصِّبْيَانِ: هؤلاء الناس بعدنا».

أشتهي إلى إنسان يعظني برؤيته قبل أن يعظني بكلامه، أشتهي إنسانًا حينما أراه يذهب غمي وهمِّي، مثل فعل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنت كلما وجدتُ في قلبي قسوة أتيتُ محمد بن المنكدر، فأنظر إليه نظرة فأتَّعِظ بنفسي أيامًا».

وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا اشتدَّت بنا الخطوب ذهبنا إلى شيخ الإسلام فجالسناه، فكان يُسَرِّي عنَّا».

الآن كلما نظرت إلى..... لا يلقي سلامًا، ويعبس وجهه، ويكلح، وربما بصق!!

لقد تغيب هذا الإنسان الصالح الذي أبحث عنه، عن منزله، وأسرته، ومجتمعه، وقريته وموطنه، يرتدي ثوب الصلاح، عليه عمامة أهل الحديث، موصوف بالتقوى، ومُحَلَّى بالزهد، يجلس في تواضع، ويمشي في سكينة، لا يغتاب أحدًا، دائم الذكر، ناصح لإخوانه، على هدي السلف يمشي، وبسمت أهل العلم موصوف، فمن يجده يتَّصل بصاحب هذه الرسالة فورًا، وله من الله الجزاء الأوفى.

ولا زلت أتذكر قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَبَقَنا القومُ على خَيْلٍ دُهمٍ، ونحن على حُمُرٍ مُعقَّرةٍ».

فليتنا نلحق بالقوم حبوًا، والله المستعان.

ذهب الوفاء أمس الذاهب ... فالناس بين مخاتل ومؤارب

يُغْشون بينهم المودَّة والسخاء ... وقلوبهم محشوَّةٌ بعقارب

من آداب السلف

أولًا - يَقْبَلُونَ الحقَّ ممن جاء به

ولأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها كما في الحديث الصحيح.

فهو يتحرى ضالته إذا فقدها، فكذلك يتحرى الحكمة ويطلبها، فإذا ظفر بها فهو أحق بها في أخذها والعمل بها، ولا ينظر فيمن قالها أو جاء بها.

خطب الحَجَّاج فقال: «إن الله أمرنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤنة الدنيا، فليته كفانا مؤنة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا».

فقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خذوها من فاسق؛ الحكمة ضالة المؤمن».

ووُجد رجل يكتب عن مخنَّث شيئًا، فَعُوتب، فقال: «الجوهرة النفيسة لا يشينها سخافة غائصها ودناءة بائعها».

قال الشاعر:

لا تحْقِرنَّ الرَّأي وهو مُوافقٌ ... حُكمَ الصَّواب إذا اتى من نَاقِصِ

فالدُّر وهو اعزُّ شيء يُقتنى ... ما حطَّ قيمتَه هوانُ القَانصِ

والنبي ﷺ قال لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، أي الجن أو الشيطان، والحديث في قصة معروفة صحيحة مخرَّجة في مواضع كثيرة.

فإبليس وهو عنوان الشرِّ وأصله كما نصح أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقراءة آية الكرسي عند كل مساء، لم يقل النبي ﷺ له لا تأخذها منه لأنه عنوان الشرِّ، بل قال: صدقك في النصح، مع كونه كذاب، ويأمر بالكذب ويدعو إليه.

فالمؤمن يقبل الحق من حيث أتاه، ويرد الباطل ولو كان الدَّال عليه خير أهل الأرض وأعلمهم.

فالحق لا يعرف بالرجال، ولكن اعرف الحق، تعرف أهله.

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يوصي يزيد بن عُميرة فيقول له: «وتَلَقَّ الحقَّ إذا سَمِعْتَهُ، فإن على الحقِّ نورًا».

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ومن جاءك بالحقِّ فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا».

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الحكمة ضالة المؤمن، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التواضع: أن تخضع للحق، وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه».

وقال حذيفة المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنك ربما أصبت الحكمة فوق مزبلة، فإذا أصبتها فخذها».

وما أجمل ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان سهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرَّازي، وأبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله، وغيرهم ثم قال: والصادق الزكيُّ الذي يأخذ من كلٍّ منهم ما عنده من الحق، فيستعين به على مطلبه، ولا يرد به، فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقامٌ معلوم».

وقبول الحق ممن جاء به أجمع عليه السلف والخلف، وهو مذهب العقلاء والفضلاء والكبراء من هذه الأمة، ومن سبَر حياة السلف والخلف وجد هذا الأمر واضحًا جليًّا، ولا مخالف لهم إلا كل مكابر معاند، اتبع هواه، وأضله الله تعالى وختم على قلبه وعلى بصره غشاوة، والعياذ بالله.

فهذا نداء إلى إخواننا الذين يدَّعُونَ أنهم على مذهب السلف، أن يقبلوا الحق ممن جاء به، ويردون الباطل مهما كان أمر الذي جاء به.

ونـداء آخـر للمعاندين الذيـن خلطوا جهلهـم بعناد وصلف وغـرور، أن الديـن ليس هـو حب الرياسـة والإمارة، فـلأن يكون أحدكم ذَنبًا في الحق خير من أن يكون رأسًا في الباطل.

وتذكـروا جميعًا مـا أخبر به الله تعالى عن فرعـون -لعنه الله-، الذي سـنَّ هذا الأمـر ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

ثانيًا- من آداب السلف الإنصاف

قال ابن عبد البر في «الجامع لبيان العلم وفضله ص[٢٠٨]»: «من بركة العلم وآدابه؛ الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم، ولم يتفهم».

قلت: من جرَّد كتب الرجال، والسير والتاريخ علم أن أنصف الناس من أهل العلم هم علماء الحديث.

ولهذا لما تفقَّه القوم بغير حديث وقعوا في الطعن والرشق، وأتوا بعجائب من الأقوال والأفعال والأخلاق، وذلك لأنهم لم يتربَّوا على آداب العلماء والسلف.

وانظر أخي في الله إلى أقوال أهل السنة من المحدثين ورواة الآثار في أهل البدع، ستجد الإنصاف بعينه، وأن تجارة هؤلاء السلف الكرام الآداب، والأخلاق والإنصاف.

واليوم أصبح أعزُّ شيء هو الإنصاف.

قال الإمام الشوكاني في «أدب الطلب ص[٣٢-٣٣]»: «وأهم ما يحصله لك أن تكون مُنصفًا لا متعصبًا في شيءٍ من هذه الشريعة، فإنها وديعة الله عندك وأمانته لديك، فلا تخنها وتمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء الإسلام، بأن تجعل ما يصدر عنه من الرأي ويروى

لـه من الاجتهـاد حُجةً عليـك وعلى سـائر العباد، فإنـك إن فعلت ذلـك كنت قد جعلته شـارعًا لا متشرعًا، مكلِّفًـا لا مكلَّفًا، ومُتَعَبَّدًا لا مُتَعَبِّدًا، وفي هذا من الخطر عليك والوبال لك ما قدمناه، فإنه وإن فضلك بنوع من أنواع العلم، وفاق عليك بمدرك من مدارك الفهم، فهـو لم يخـرج بذلك عن كونه محكومًا عليه متعَبِّدا بـما أنت متَعَبِّد به، فضلًا عن أن يرتفع عن هذه الدرجة إلى درجة يكون رأيه فيها حجة على العباد، واجتهاده لديها لازمًا لهم، بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق، وتقر له بعلو الدرجة اللائقة به في العلم، مُعتقدًا أن ذلك الاجتهاد الذي اجتهده، والاختيار الذي اختاره لنفسـه بعد إحاطته بما لا بد منه هو الذي لا يجب عليه غيره، ولا يلزمه سواه، لما ثبت في الصحيـح عن رسـول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**»، وفضل الله واسع.

قلت: والله إنه لكلام حكيم.

فعلى كل أخ أن يتعلم الإنصاف، ويجعله رأس ماله، فإن فاتك الإنصاف، وقعت في الإجحاف، وبالغت في الجفاء والجفاف.

•

ثالثًا- من أداب السف: دفن المساوئ، وإظهار الحق

قال ﷺ: «إذا سابَّك رجلٌ بما يعلم منك، فلا تسبه بما تعلم منه، فيكون أجر ذلك لك، ووباله عليه» الصحيحة [١١٠٩].

أقول: والله لو بحثت في اليهودية والنصرانية، وجميع ما كتب الأدباء، والحكماء، وما نطق الناطق منذ خلق الله الدنيا وحتى زوالها، عن مثل هذا الخُلُق الرفيع، والذي قال عنه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] فلن أجد.

ثم أين نحن من هذا الأدب النبوي؟

وأحدنا يبحث لأخيه عن زلة، ويفتش له عن كبوة، ويتمنى له ذلك، فإذا لم يجد ألصق له التُّهم، وقال عليه ما لم يقله أو يفعله، أو حتى خطر له على بال!

قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات».

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظلمٌ لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم، وتكتم خيره».

وسئل رؤبة بن العَجَّاج -الشاعر المعروف- عن أعداء المروءة فقال: «بنو عمِّ السوء؛ وإن رأو صالحًا دفنوه، وإن رأوا شرًّا أذاعوه».

قال ابن حجر الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من شأن المؤمن الكريم أن يستحضر في نفسه محاسن أخيه، وينسى مساوءه».

قال الذهبي في السير (٢٠/ ٤٦) في ترجمة «محمد بن أحمد بن يحيى العثماني»: «غلاة المعتزلة، وغلاة الشيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الاشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالِمَ على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن».

فينبغي على المسلم أن لا يتتبع عثرات إخوانه، لأن من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثراته ثم يفضحه على رؤوس الخلق.

وعلى المسلم أن يغمض عينيه عن كبوات إخوانه، ولا يبحث عن عيوبهم، ويذكر محاسنهم، ويسكت عن عيوبهم، فما من أحدٍ

إلَّا ولـه كبوات وزلَّات ومساوئ، فإن أنت أظهرت عيوبهم اليوم، فغدًا ستجد من يفضح أمرك ويبحث عن عيوبك، وينتظر زلاتك، ويتربص بك حتى يفضحك، أقول كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو غيره: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر».

قال قعنب بن أم صاحب:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرتُ به ... وإن ذُكِرت بسوءٍ عندهم أُذِنوا

فَطَانة فطنوها لو تكن لهم ... مروءة أو تُقىً لله ما فطَنُوا

إن يسمعوا شيئًا طاروا به فرحًا ... مني وما سمعوا من صالحٍ دفنوا

وكانوا يعدون البحث عن زلة، أو أي عيب من التجسس المحرم.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تسأل عن عمل أخيك الحسن والسيِّئ، فإنه من التجسس».

قال أبو حاتم البستي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يُتعب قلبه، فكلما اطَّلع على عيب نفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذَّر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب

الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن عاب الناس عابوه».

ولقد أحسن الذي يقول:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا ... عليك وأبدوا منك ما كان يُسْتَرُ

وقد قال في بعض الأقاويل قائل ... له منطق فيه كلام مُحَبَّرُ

إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلا دون ما منك يُذكرُ

فإن عبت قومًا بالذي ليس فيهم ... فذلك عند الله والناس أكبرُ

وإن عبت قومًا بالذي فيك مثلُهُ ... فكيف يعيب العُوَر من هو أعور؟

وكيف يعيب الناس من عيب نفسه ... أشدُّ إذا عدَّ العيوب وأنكرُ؟

متى تلتمس للناس عيبًا تجد لهم ... عيوبًا، ولكنَّ الذي فيك أكثرُ.

وقد قيل: لا يرى عيوب الناس إلا من كثرت عيوبه، ولا يكتم حسنات الناس ومحاسنهم إلا من ماتت مكارمه ومحاسنه، ولا يظهر محاسن الناس إلا من كان محسنًا.

رابعًا- من آداب السلف: استعمال المروءة

جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه**».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «صرَّح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الخبر بأن المروءة هي العقل، والعقل اسم يقع على العلم بسلوك الصواب واجتناب الخطأ».

فالواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما يقدر عليه من الخصال المحمودة، وترك الخلال المذمومة.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا دين إلا بمروءة».

وجاء في تعريف المروءة أقوال كثيرة؛ منها:

المروءة ثلاث: إكرام الرجل إخوان أبيه، وإصلاحه ماله، وقعوده على باب داره.

وقيل: المروءة: إتيان الحق، وتعاهد الضعيف.

وقيل: المروءة: تقوى الله، وإصلاح الضيعة، والغذاء والعشاء في الأفنية.

وقيل: المروءة: إنصاف الرجل من هو دونه، والسمو إلى من هو فوقه، والجزاء بما أُتِيَ عليه.

وقيل: المروءة: صدق لسانه، واحتماله عثرات جيرانه، وبذله المعروف لأهل زمانه، وكفُّه الأذى عن أباعده وجيرانه.

وقيل: المروءة: التباعد من الخُلق الدَّنِي فقط.

وقيل: المروءة: أن يعتزل الرجل الريبة، فإنه إذا كان مريبًا كان ذليلًا، وأن يصلح ماله، فإن من أفسد ماله لم يكن له مروءة، والإبقاء على نفسه في مطعمه ومشربه.

وقيل: المروءة: حسن العشرة، وحفظ الفرج واللسان، وترك المرء ما يعاب منه.

وقيل: المروءة: سخاوة النفس، وحسن الخلق.

وقيل: المروءة:العفَّة والحرفة، أي: يَعِفُّ عما حرَّم الله، ويحترفُ فيما أحلَّ الله.

وقيل: المروءة: كثرة المال والولد.

وقيل: المروءة: إذا أُعطيت شكرت، وإذا ابتليت صبرت، وإذا قدرت غفرت، وإذا وعدت أنجزت.

وقيل: المروءة: حُسن الحيلة في المطالبة، ورقة الظُّرف في المكاتبة.

وقيل: المروءة: اللطافة في الأمور، وجودة الفطنة.

وقيل: المروءة: النظافة، وطيب الرائحة.

وقيل: المروءة: طلب السلامة واستعطاف الناس، ومراعاة العهود، والوفاء بالعقود، والتذلل للأحباب بالتملق، ومداراة الأعداء بالترفق.

عن ابن عائشة عن أبيه قال: كان يقال: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكي القلوب.

قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «آفة المروءة إخوان السوء».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من قلة مروءة الرجل نظره في بيت الحائك، وحمله الفلوس في كمه».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجب على العاقل تفقد الأسباب المستحقرة عند العوام من نفسه حتى لا يثلم مروءته، فإن المحقرات من ضد المروءات تؤذي الكامل في الحال بالرجوع في القهقرى إلى مراتب العوام وأوباش الناس».

وأقول: أكثر ما يفسد المروءة الكذب، فإن كثيرًا من الإخوان اتخذوا من الكذب حرفة، ومخالفة المعهود مهنة، فسقطوا من أعين الخلق، وأصبحوا مثلًا سيئًا للدعاة، وإن كانوا هم مُدَّعين لا دعاة، والله المستعان.

وهناك أشياء كثيرة جدًّا لإسقاط المروءة، ليس هذا محل ذكرها.

وبعد ذكر أقوال أهل العلم والحكماء في معرفة المروءة، أقول: إن المروءة مركبة من هذا كله، فمن ذكرها بشيء فقد ذكرها ببعض أفرادها.

وفي المروءة بحث يطول ذكره، وقد ذكرت عنها بعض الشيء في كتابنا: (إيقاظ الهمة) فراجعه.

وهذه المروءة عرفها علماء الحديث بتعريفات غير ما ذكرنا، وليس هذا محله.

فالواجب على الأخ المسلم الملتزم الذي أُخاطبه في هذه الرسالة أن يتحلى بهذا الخلق الكريم، حتى لا يلتحق بأوصاف اللئام، ولا يقع في كثرة الملام، فمن تحلَّى بالمروءة رُجِيَ له السلام، واستكثر من الاغتنام.

قال محمد بن عمران رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المروءة: لا تعمل شيئًا في السِّرِّ تستحي منه في العلانية».

قال محمد بن النضر الحارثي: «أوَّل المروءة: طلاقة الوجه، والثاني: التودد إلى الناس، والثالث: قضاء الحوائج».

خامسًا- من آداب السلف: قبول الاعتذار من المعتذر

جاء في حديث مرفوع: «من اعتذر إلى أخيه فلم يقبل كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: على العاقل إذا اعتذر له أخوه لجُرم مضى، أو لتقصير سبق، أن يقبل عذره، ويجعله كمن لم يذنب، لأن من تُنُصِّل إليه فلم يقبل أخاف أن لا يردَ الحوضَ على المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن فرط منه تقصير في سبب من الأسباب يجب عليه الاعتذار عليه في تقصيره إلى أخيه.

إذا اعتذر الصديق يومًا ... من التقصير عذر أخٍ مُقرِّ
فَصُنْهُ جَفَاءَك واعفُ عنه ... فإن الصفح شيمةُ كل حُرِّ

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجب على المرء أن يعتذر بحيلة إلى من لا يجب أن يجد له عذرًا، ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلى أخيه، فإن الإكثار من الاعتذار هو السبب المؤدِّي إلى التهمة، وإني أستحب الإقلال من الاعتذار على الأحوال كلها، لعلمي أن المعاذير يعتريها الكذب، وقلَّ ما رأيت أحدًا اعتذر إلا شَابَ اعتذارَه بالكذب، ومن اعترف بالزِّلة استحق الصفح عنها، لأن ذُلَّ الاعتذار عن الزِّلة يوجب تسكين الغضب عنها، والمعتذر إذا كان محقًّا خضع في قوله، وذَلَّ في فعله، كما أنشدني المنتصر بن بلال:

أيا ربِّ قد أحسن عودًا وبداءةً ... إليَّ أفلم ينهض بإحسانك الشكر

فمن كان ذا عذر إليك وحُجَّةٍ ... فعذري إقراري بأن ليس لي عذر

عن عبد الله بن خبيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كان يقال: احتمل من دلَّ عليك، واقبل ممن اعتذر إليك».

عن أبي قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه، فالتمس له عُذرًا، فإن لم تجد له عُذرًا، فقل: لعلَّ له عذرًا لا أعلمه».

قال عيسى بن عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان لأبي الأسود الدؤلي صديق، فرأى منه بعض ما يكره، فقال أبو الأسود:

رأيت امرءًا لم أكن أبتُهُ ... أتاني فقال: اتخذني خليلا

فخالتُهُ ثم صافيتُهُ ... فلم ينقص الود منه فتيلا

فراجعته، ثم عاتبته ... عتابًا رفيقًا، وقولًا جميلا

ألست حقيقًا بتوديعه ... وأتْبعُ ذلك هجرًا جميلا

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجب للمرء أن يعلن عقوبة من لم يعلن ذنبه، ولا يخلو المعتذر في اعتذاره من أحد رجلين؛ إما أن يكون صادقًا في اعتذاره، أو كاذبًا.

فإن كان صادقًا؛ فقد استحق العفو، لأن شرَّ الناس من لم يقل العثرات، ولا يستر الزلات.

وإن كان كاذبًا؛ فالواجب على المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب وريبته، وخضوع الاعتذار وذلته، أن لا يعاقبه على الذنب السالف، بل يشكر له الإحسان المُحْدَث الذي جاء به في اعتذاره، وليس يعيب المعتذر إن ذلَّ وخضع في اعتذاره إلى أخيه».

هبني أسأت، كما زعمت ... فأين عاطفة الأخوة؟
أو إن أسأت كما أسأت ... فأين فضلك والمروَّة؟

وقال الشاعر:

أتيتك تائبًا من كل ذنبٍ ... وخير الناس من أخطأ فتابا
أليس اللهُ يستعفى فيعفو ... وقد ملك العقوبة والثوابا؟

وقال آخر:

هبني مسيئًا كالذي قلتَ ظالمًا ... فعفوٌ جميل كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما ... أتيتُ به أهلًا، فأنت له أهل

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاعتذار يذهب الهموم، ويجلي الأحزان، ويدفع الحقد، ويذهب الصدَّ، والإقلال منه تستغرق فيه الجنايات العظيمة، والذنوب الكبيرة، والإكثار منه يؤدي إلى الاتهام وسوء الرأي، فلو لم يكن في اعتذار المرء إلى أخيه خصلة تُحمد إلا نفي التعجب عن النفس في الحال لكان الواجب على العاقل أن لا يفارقه الاعتذار عند كلِّ زلةٍ».

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يحل لامرئٍ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءًا وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجًا».

قلت: والله لحريٌّ بكل مسلم أن يعلق هذا القول على صدره، وهذه الحكمة على جبينه، فقد ضقنا ذرعًا من سوء الظن، وأصبحت حياتنا الدعوية غير العادية مليئة بسوء الظن حتى فسد كل صالح، وغُيِّر الحلو إلى مالح.

قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «يحتمل الرجل لأخيه إلى سبعين زلة، ويطلب له المعاذير، فإن أغناه ذلك، وإلا قال: لعلَّ لأخي عذرًا غاب عني».

أين هذا؟ ونحن لا نبحث عن الأعذار، بل نبحث عن الفضيحة وعدم الاستتار، والله المستعان.

قال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لو أن رجلًا شتمني في أذني هذه، واعتذر في أذني الأخرى لقبلت عذره».

فيا أيها الأخ المسلم الملتزم الذي يسكن في بلدنا -كفر الدوَّار- وجميع بلاد المسلمين، لا تجعل من ذنب أخيك لك سيفًا مصلَّطًا على رقبته، تضعه متى شئت، وترفعه متى شئت، ولا تجعل من تقصيره في حقك جُرمًا تُشَهِّرَه به، كلما جلست مجلسًا ذكرته، وكلما سنحت

لك الفرصة أظهرتـه، فتجني عليه، وتجعل قلبه يفور بالحقد عليك، والغيظ منك، فالسـلامة كل السلامة في قبول الاعتذار، وأفضل منه من تواضع فاعتذر لذنبه، وقدَّم تقصيره لأخيه ليغفر له.

والقلوب الآن ليسـت بحاجة لشـحنها بكل هذا، فهي تحتاج أعمارًا لكي تطهر مما هو فيها، وأنَّى لها ذلك.

سادسًا- ينصحون ولا يفضحون

هذا الأدب الرفيع القدر، العظيم الشأن، من شأنه يبني مجتمعًا في غاية الحب، ونهاية الود، مجتمع تسوده الألفة، وتسيطر عليه المودَّة، خالٍ من الآفات، محفوظ من العيوب والنزاعات.

قال ﷺ: «**الدين النَّصيحةُ**».

وهذا حديث أصل من أصول الإسلام، ومبنى من مباني الإيمان، إقامة هذا الأصل بشروطه يفي بالحاجات، ويبني أمة على أصول إيمانية صحيحة.

واعلم أخي في الله أنه لولا الحب لك في الله ما كان مني هذا النصح، وافهم كلامي جيدًا، فأنا أقول: «ينصحون ولا يفضحون»، ولا أقول «يفضحون ولا ينصحون»، لأن الفهم قد اعوجَّ، وطريق الوعي قد انسدَّ، وبقيت -عندنا- العقول منتكسة، حتى أصبح النصح جرحًا، والجرح نُصحًا.

قال جرير رضي الله عنه: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصحِ لكل مسلم».

فلقد أقام الله تعالى الدين على النصح والستر، والناصح الساتر مؤمن، والهاتك الفاضح فاجر.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن يسترُ وينصح، والفاجر يهتك ويُعَيِّرُ».

قال إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما رأيت على رجل قطُّ خطئًا إلا سترته، وأحببت أن أزيِّن أمره، وما استقبلت رجلًا في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أُبَيِّن له خطأه فيما بيني وبينه، فإن قَبِلَ ذلك وإلا تركته».

قال عبد العزيز بن أبي رواد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان من قبلكم إذا رأى الرجلُ من أخيه شيئًا يأمرُه في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه ويهتك ستره».

وجاء نحوه عن ابن المبارك فقال: «كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره أمره في ستر، فيؤجر في ستر، ويؤجر في نهيه، فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحدٍ ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره».

أقول: هذا قول ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أكثر من ألف ومائة عام، وكان في زمن القرون الأولى المفضَّلة، فماذا بقي لنا وبيننا وبينهم مفاوز تندق فيها أعناق الإبل.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن شعبة من المؤمن، وهو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه سدَّده وقوَّمه، ونصحه بالسر والعلانية».

قال الشاعر:

أمِنتُ على السرِّ امرءًا غير حازم ... ولكنه في النصح غير مريب

فذاع به في الناس، حق كأنما ... بعلياء نارٌ أوقدت بثقوب

في كل ذي لُبٍ بمؤتيك نُصحه ... وما كل مُؤتٍ نصحه بلبيب

ولكن إذا ما استجمعا عند واحدٍ ... فحقَّ له من طاعة بنصيب

قال ابن الأعرابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض الحكماء: اثنان ظالمان؛ رجل أهديت له النصيحة فاتخذها ذنبًا، ورجل وُسِّع له في مكان ضيِّقٍ فجلس متربِّعًا».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النصيحة محاطة بالتهمة، وليست النصيحة إلا لمن قَبِلَها، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها، ولا الآخرة إلا لمن طلبها، وليس على كل ذي نصح إلا الجهد، ولو لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه لم يحمد غبَّ رأيه، ومشاورة الأصم أحمد من الناصح المعرض عنه، ومن بذل نصيحة لمن لا يشكر كان كالباذر في السباخ، وأكثر ما يوجد ترك قبول النصيحة من المعجب برأيه».

قال الشاعر:

إذا نصحت لذي عُجب لترشده ... فلم يطعك فلا تنصح له أبدا

فإن ذا العجب لا يعطيك طاعته ... ولا يجيب الى إرشاده أحدا

وما عليك وإن غاوٍ غوى حِقبًا ... إن لم يكن لك قُربى أو يكن ولدا

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النصيحة تجب على الناس كافة، ولكن إبداؤها لا يجب إلا سرًّا؛ لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سرًّا فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزيِّن أخاه أحرى من القصد فيما يشينه».

قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت لمسعر: تحب أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجيئ إنسان فيوبِّخني بها فلا، وأما أن يجيئ ناصح فنعم».

فكم من عدوٍ معلن لك نصحه ... علانية والغش تحت الأضالع

وكم من صديق مرشد قد عصيته ... فكنت له في الرشد غير مطاوع

وما الأمر إلا بالعواقب إنها ... سيبدو عليها كل سر وذائع

عن إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «قلت لسفيان بن عيينة: أيَسُرُّك أن يُهدى إليك عيبُك؟ قال: أما من صديق فنعم، وأما من مُوَبِّخٍ أو شَامِتٍ فلا».

فأهل السنة في المسلمين، كالمسلمين في أهل الأديان، وهم موصوفون بالنصح في السرِّ، ولا ينصحون في العلن إلا لضرورة، وهم أيضًا لا يجرحون ولا يفضحون، فإن رأيت فاضحًا مجرِّحًا فاعلم أنه من أهل البدع لا من أهل السنة.

وأهل السنة أرفق الخلق بالخلق، وأحلم الناس على الناس، وألين كلامًا، وأخلص قولًا وفعلًا لله تعالى في أفعالهم وأقوالهم، فرحم الله أهل السنة، فما بقي منهم إلا بقايا في زوايا الأرض.

سابعًا- من أخلاق السلف: التحبب إلى الناس من غير مقارفة المأثم

لقد صحَّ مرفوعًا عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يحرم على النار كل هيِّنٍ ليِّنٍ قريبٍ سهلٍ**».

هين ليس نافرًا مستعصيًا، لين الجانب، ليس خشنًا قريب الخلق، ليس شكسًا.

والتحبب إلى الخَلق يكون:

- بحسن الخلق، وترك سوء الخلق.

- قضاء حوائجهم.

- النظر في مصالحهم.

- التودد إليهم، وتهنئتهم عند وقوع المسرَّة، وتعزيتهم عند وقوع المساوئ والمصائب.

- أن لا يحرمهم ماله ووقته.

- معاونتهم على الخير، وردُّهم عن الشرِّ.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن

يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها، وخلق سيئ فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها، وأنشدني البغدادي:

خالق الناس بخُلقٍ حَسنٍ ... لا تكن كلبًا على الناس يهر

والقهم منك ببشر ثم صُن ... عنهم عرضك عن كل قَذَر

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن الرحم تُقطع، وإن النِّعم تُكفر، ولم أر مثل تقارب القلوب».

قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا خالطت، فخالط حَسَن الخُلق، فإنه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبه منه في راحةٍ، ولا تخالط سيئ الخلق؛ فإنه لا يدعو إلا إلى شر، وصاحبه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني قارئ سيئ الخلق؛ إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله، وخف على الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل على الناس ومقتوه».

حسن الخلق بذر اكتساب المحبة، كما أن سوء الخلق بذر استجلاب البغضة، ومن حَسُن خُلُقه؛ صان عرضه، ومن ساء خُلقه هَتَك عرضه؛ لأن سُوء الخُلق يُورث الضغائن، والضغائن إذا تمكنت في القلوب أورثت العداوة، والعداوة إذا ظهرت من

غير صاحب الدين أهوت صاحبها إلى النار، إلا أن يتداركه المولى بتفضل منه وعفو.

قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التودد إلى الناس نصف العقل، وحسن المسألة نصف العلم، واقتصادك في معيشتك يلقي عنك نصف المؤونة».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التحبب إلى الناس أسهل ما يكون وجهًا، وأظهر ما يكون بشرًا، وأخصر ما يكون أمرًا، وأرفق ما يكون نهيًا، وأحسن ما يكون خُلقًا، وألين ما يكون كنفًا، وأوسع ما يكون يدًا، وأدفع ما يكون أذىً، وأعظم ما يكون احتمالًا، فإذا كان المرء بهذا النعت لا يحزن من يحبه، ولا يفرح من يحسده؛ لأن من جعل رضاه تبعًا لرضا الناس، وعاشرهم من حيث هم؛ استحق الكمال بالسؤدد.

وحاجة المرء إلى الناس مع محبتهم إياه خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه، والسبب الداعي إلى صد محبتهم له هو التضايق في الأخلاق، وسوء الخلق؛ لأن من ضاق خلقه سئمه أهله وجيرانه، واستثقله إخوانه، فحينئذٍ تمنَّوا الخلاص منه، ودعوا بالهلاك عليه.

الواجب على العاقل مجانبة الخصال التي تورثه استثقال الناس إياه، وملازمة الخصال التي تؤديه إلى محبتهم إياه.

ومن أعظم ما يتوسل به إلى الناس ويستجلب به محبتهم البذل لهم مما يملك المرء من حطام هذه الدنيا، واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذى.

فمن عدم المال، فليبسط وجهه للناس؛ فإن ذلك يقوم مقام بذل المعروف، إذ هو أحد طرفيه».

ولهذا قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حسن الخلق هو: بسط الوجه، وبذل المعروف».

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أحب إلى الله تعالى من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**».

فالواجب أن تكون المخالطة بالمعروف، والصبر على أذاهم إذا هم آذوك، كما يجب على المسلم الملتزم أن يتحبب إلى الناس بحسن الخلق، وبذل المعروف، وتحمُّل الأذى، وقضاء حوائجهم، فإن ذلك أدعى لنشر الدعوة والعلم والدين.

ثامنًا- كانوا يكرهون التلون في الوداد

رُوي مرفوعًا عن سهل بن سعد: «**لا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له**».

«الواجب على العاقل إذا رزقه الله ودَّ امرئٍ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه أن يتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صَرَمهُ، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ، عنه وعلى البذل له إن حَرَمهُ، وعلى الدنو منه إن باعده حتى كأنه ركن من أركانه وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد».

قال الشاعر:

وكم من صديق وده بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتندم

يضاحكني كرها لكيما أوده ... وتتبعني منه إذا غبت اسهم

قال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال رجل من الأعراب: «من أعجز الناس من قصَّر عن طلب الإخوان، وأعجز منه من ظفر بذلك منهم، فأضاع مودتهم، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه».

«العاقل لا يقصر في تعاهد الوداد ولا يكون ذا لونين وذا قلبين بل يوافق سره علانيته وقوله فعله ولا خير في متآخيين ينمو بينهما الخلل ويزيد في حاليهما الدغل».

قال الشاعر:

لحا الله من لا ينفع الود عنده ... ومن حبله إن مد غير متين

ومن هو ذو لونين ليس بدائم ... على الوصل خوان لكل أمين

ومن هو ذو قلبين أما لقاؤه ... فحلو وأما غيبه فظنين

ومن هو إن تحدث له العين نظرة ... يقطع بها أسباب كل قرين

سبحان الله، شاعر من أكثر من ألف سنة يصف حالنا، ويُظهر عوارنا، ويُفشي أمرنا.

فأكثر الناس، وبخاصة الذين أعنيهم في كلامي وبكلامي أُصيبوا بالتلون في كل شيء، إلَّا من رحم، حتى تأصَّل في نفوس الصغار أن هذه هي الأخلاق، وهذا هو الدين، فنشئوا عليه، واستهجنوا الأخلاق الحسنة ممن جاء بها، وأصبح من يتمسك بالود والوفاء والصدق، قالوا: عنده مرض نفسي، أو انطوائي، ورموه بالعظائم.

قال سليمان بن داود لابنه: «يا بني! عليك بالحبيب الأول، فإن الآخر لا يعدله».

قال محمد بن حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أعرابي بالكوفة، وكان له صديق، وكان يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابي من عُدده للشدائد، إذ حزب الأعرابي أمر، فأتاه فوجده بعيدًا مما كان يُظهر للأعرابي، فأنشأ يقول:

إذا كان ود المرء ليس بزائد ... على مرحبا أو كيف انت وحالكا
ولم يك إلا كاشرا أو محدثا ... فأف لود ليس إلا كذلكا
لسانك معسول ونفسك بشة ... وعند الثريا من صديقك مالكا
وانت إذا همت بمينك مرة ... لتفعل خيرا قاتلتها شمالكا».

قال محمد بن حازم:

وإن من الإخوان إخوانَ كِشْرَةٍ ... وإخوان حياك الإله ومرحبا
وإخوان: كيف الحال والأهل كله؟ ... وذلك لا يسوي نقيرًا متربًا
جواد إذا استغنيت عنه بماله ... يقول: إليَّ القرض، والقرضَ فاطلُبا
فإن انت حاولت الذي خلف ظهره ... وجدت الثريا منه في البعد اقرب

العاقل لا يصادق المتلون، ولا يؤاخي المتقلب، ولا يظهر من الوِداد إلا مثل ما يضمر، ولا يضمر إلا فوق ما يظهر، ولا يكون في النوائب عند القيام بها إلا ككونه قبل إحداثها والدخول فيها؛ لأنه لا يحمد من الإخاء ما لم يكن كذلك.

قال الشاعر:

وليس أخي من ودني بلسانه	ولكن أخي من ودني في النوائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدما	ومالي له إن عض دهر بغارب
فلا تحمدن عند الرخاء مؤاخيا	فقد تنكر الإخوان عند المصائب
وما هو إلا كيف أنت ومرحبا	وبالبيض روّاغ كروغ الثعالب

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوِداد وسقمه؛ ملاحظة العين إذا لحظت، فإنها لا تكاد تبدي إلا ما يضمر القلب من الود، ولا يكاد يخفى ما يُجنّه الضمير من الصدِّ، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه، ويجعل له بينهما مسلكًا لا يرده عن معرفة صحته شيء تخيله».

قال ابن المقفع لابنه: «لا تتخذ الأخ الخاذل أخًا».

قيل لميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مالك لا تفارق أخًا عن خلاء؟ قال: إني لا أماريه ولا أشاريه».

فيا أخي الحبيب، كن كما أخبر سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قال: «قال محمد بن سوقة: كان رجلان متواخيين، فطلب أحدهما من الآخر شيئًا فمنعه، قال: فكان الآخر الذي مُنِعَ لم ينتقص من المودَّة شيئًا، فقال له الآخر: سألتني فمنعتك، ولم أره نقصني ذلك عندك في المودة! فقال: إنما أحببتك على أمر كنتَ عليه، فأنا على ذلك الأمر. قال: فإني إنما صنعت ذلك لأختبرك، فأما إذ رأيت ذلك منك فابسط يدك إلى ما شئت».

تاسعًا- كانوا لا يعيبون الناس

قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أكثر الناس خطايا، أكثرهم ذكرًا لخطايا الناس».

قال بعض الزُّهَّاد: «من أبصر عيب نفسه شُغِل عن عيب غيره، ومن هتك جلباب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسي زلَلَه استعظم زلل غيره، ومن استغنى بعلمه زل».

فكان السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ينشغلون بعيوبهم، ولا يشغلهم عيوب غيرهم، فكل واحد كان منهمكًا في إصلاح نفسه، ومعالجة عيوبه، فأنساه ذلك عيوب إخوانه.

قال عوف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما أحسب أحدًا يفْرُغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه، ولو اهتمَّ بعيب نفسه ما تفرَّغ لعيب أحدٍ ولا لذمِّه».

وقال ابن الكواء للربيع بن خثيم: «ما نراك تعيب أحدًا ولا تذمُّه! قال: ما أنا عن نفسي براض فأتفرغ من ذنبي إلى حديث الناس».

وقال معاذ بن أنس عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ومن رمى مسلمًا بشيء يريد شينه به؛ حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال**» حديث حسن.

أي: من انشغل بعيوب المسلمين بشيء من العيوب، أو يفتِّش لهم عن عيب، يريد شينه به، وعيبه بهذا الشيء كان هذا جزاءَهُ.

وعن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنا نحدَّث أن أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس».

قال المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واشتغل بإصلاح نفسك عن عيب غيرك، فإنه كان يقال: كفى بالمرء عيبًا أن يتبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه، أو يمقت الناس فيما يأتي مثله، أو يؤذي جليسه، أو يقول في الناس ما لا يعنيه».

فمن علامات السعادة في الدنيا والآخرة؛ الإمساك عن ذم الناس، والانشغال بعيوبهم، ومن علامات الشقاوة؛ الانشغال بعيوب الناس والخوض في أعراضهم، والحديث عنهم».

ثم إن في حياة المرء لشغلًا منذ أن يصبح حتى يمسي عن كلام الناس والانشغال بهم، فلو أن المرء شغله عيب نفسه؛ لمكث في هذا الانشغال دهرًا طويلًا ربما لم يفق منه إلا على شفير القبر.

والمرء بقدر ما فيه من عيب يُكْثِرُ من عيوب الناس، فيستدل بما عند المرء من عيب انشغاله بعيب غيره.

ولا يطلب عيوب الناس إلا أعايب الناس وأراذلهم، فكف المرء بعيب نفسه شغلًا عن عيب غيره.

ومن الذي لا عيب فيه؟، وكل ابن آدم خطَّاء، بل من الذي لم تكثر عيوبه؟ ولأنه غير معصوم فلابد من كثرة ذنوبه وعيوبه.

وأنَّ الذي لا عيب فيه فقد ادَّعى العصمة، ومن ادَّعى العصمة فقد كذب، وما أشدُّه من كذب.

قال الشاعر:

إذا ما تعيب الناس عابوا فأكثروا ... عليك وابدوا منك ما كنت تستر

فلا تَعِبْنَ خُلقًا فيك مثله ... وكيف يعيب العُوَر من هو أعور

فليس لأحدٍ آمن بالله تعالى ربًّا، وبالنبي ﷺ وبالمعاد، والجنة والنار، أن تشغله عيوب الناس عن عيوبه، وأن يهتم بمساوئهم عن مساوئ نفسه، وأن يتلهى بالطعن فيهم عن الطعن في نفسه، فإن من فعل ذلك كان أهلك الناس.

فإذا أراد المسلم السلامة من ألسُن الناس؛ فليعلم أن للناس ألسُنٌ، فإذا عابهم عابوه، وإن سلموا منه سلم منهم، فالسلامة كل السلامة في الانشغال بعيب النفس عن عيوب الناس.

وقد ظهر قِبَلنا جماعة تركوا الانشغال بما هم فيه من العيوب والجهالة والسفاهة، وانشغلوا بتجريح الدعاة والعلماء، ولم يدرسوا من الدين إلا الجرح والتجريح ولو درسوه على الأصول والقواعد ما وقعوا فيما وقعوا فيه، فاللهم رحماك بنا.

عاشرًا- أنهم أصلحوا سرائرهم بالتقوى

«إذا كره الله منك شيئًا فلا تفعله إذا خلوت».

فعلى المسلم لزوم تقوى الله، وإصلاح سريرته، كما يجاهد في إصلاح علانيته، لأن من صلح جُوَّانيه أصلح الله بَرَّانيه، ومن أفسد جُوَّنيه أفسد الله بَرَّانيه.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قطب الطاعات للمرء في الدنيا هو إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر، والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة قلبه عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه؛ لأن تكدر الأوقات، وتنغص اللذات لا يكون إلا عند فساده، ولو لم يكن لإصلاح السرائر سبب يؤدي العاقل إلى استعماله إلا إظهار الله عليه كيفية سريرته خيرًا كان أو شرًا لكان الواجب عليه قلة الإغضاء عن تعاهدها.

قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت، ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن وإن قلوب الأبرار

تغلي بأعمال البر وإن قلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فانظروا ما همومكم رحمكم الله».

قال الشاعر:

وإذا أعلنت أمرا حسنا ... فليكن أحسن منه ما تسر

فمسر الخير موسوم به ... ومسر الشر موسوم بشر

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرجل ليتكلم بالكلام ينوي فيه الخير، فيلقي الله في قلوب العباد حتى يقولوا ما أراد بكلامه هذا إلا الخير، وإن الرجل ليتكلم بالكلام الشر لا ينوي فيه الخير، فيلقي الله في قلوب الناس حتى يقولوا ما أراد بكلامه هذا إلا الشر».

وعن أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت الحسن يقول: إنكم وقوف ها هنا تنتظرون آجالكم، وعند الموت تلقون الخبر، فخذوا مما عندكم لما بعدكم».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجب على العاقل أن يأخذ مما عنده لما بعده من التقوى، والعمل الصالح بإصلاح السريرة، ونفي الفساد عن خلل الطاعات عند إجابة القلب وإبائه، فإذا كان صحة السبيل في إقباله موجودًا أنفذه بأعضائه، وإن كان عدم وجوده موجودًا كبحه عنها؛ لأن بصفاء القلب تصفو الأعضاء.

ما المرءُ إلا قلبه ولسانه ... إذا حصلت اخباره ومداخله

إذا ما رداء المرء لم يك طاهرا ... فهيهات ان ينقيه بالماء غاسله

وما كل من تخشى ينالك شره ... وما كل ما املته انت نائله

فالواجب على العاقل أن يفتش قلبه في ورود الأوقات، ويكبح نفسه عن جميع المزجورات، ويأخذها بالقيام في أنواع المأمورات، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة في الحالات، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائمًا حتى يوجد منه صحة التثبت في الأفعال.

فالواجب على الأخ الملتزم المسلم الذي أسلم قلبه لله تعالى، وأسلمت معه جوارحه، ألَّا يفسد قلبه بما يشغله عن الله، فإن ذلك أشدُّ خطرًا على القلب، وأن يتعهد قلبه بطهارة سريرته، فيكون ما يبطن مثل ما يظهر من الصفاء والطُّهر، فلا يظهر حسنًا، ويبطن غيره، ولا يعلن خشوعًا، وقلبه خال منه، ويظهر مودةً، وقلبه محشوٌ بالبغض، ويفور بالحسد، ويغلي بالغيظ، فالذي حشا قلبه بهذه الأمراض أسرع الناس موتًا، وأسوؤهم ذكرًا، وحاول جاهدًا -أخي في الله- أن تستوي سريرتك وعلانيتك بالتقوى وحسن الظن، والحب في الله، فما أكثر الابتسامات التي تخفي وراءها سمومات، والله المستعان.

أخي في الله هذه عشرة خلال من الأدب، وهناك عشرات من هذه الخصال الأدبية في المنظومة الأخلاقية، تركتها عن عمد رجاء

أن أرى مما ذكرته على أرض الواقع، فإن رأيت منها شيئًا، نشرت باقي الخلال والخصال، وإلا فكفى الله المؤمنين شرَّ القتال.

وكنت أتمنى أن تكتحل عيني برؤية بعضها، ولكن أقول مع هذا النبي: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

أخي في الله: لا تنظر إلى رسالتي إليك هذه نظر المغشي عليه من الموت، فتأخذها ثم تُقَلِّبها ثم ترمي بها ولا تقرأها، أما أنا فقد كتبتها لك، وأخلصت فيها النصح، وأما أنت فقد وصلت إليك، وأصبح ما فيها حجة عليك، وسوف تُسأل عما فيها إن كنت قرأتها وألقيتها عنك.

أخي في الله: اعرض نفسك على هذه الآداب، وهذا هو الواجب على كل مسلم، فإن صادفت فيك خُلُقًا موجودًا؛ أَثْبِتْهُ عندك وفرحت به نفسك، وحمدت الله عليه، وإن لم يكن موجودًا، بل كان معدومًا حاول جاهدًا بأن تتخلق به وتتأدب به، فأنا والله ما كتبتها رغبة في مدح، أو خوفًا من ذمٍّ، إنما كتبتها رغبة في الإصلاح، وراجيًا الفلاح.

وفي النهايـة هو جهد المقل، فإن كان مـن توفيق، فذلك محض فضـل الله، وإن كان غير ذلك، وأعوذ بالله من ذلك، فأرجو الصفح والعفو والمغفرة، والله المأمول أن يغفر ويصفح ويعفو.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

أبو أنس المصري السلفي

حامي بن محمد بن اسماعيل الرشيدي

غفر الله له ولوالديه

الكيماويات: ٢٠/ ٩/ ٢٠١١م

فهرس

فهرس

مقدمة..... ٧
مدخل..... ١١
الأدب الأول ـ يقبلون الحق ممن جاء به..... ٢٧
الأدب الثاني ـ الإنصاف..... ٣١
الأدب الثالث ـ دفن المساوئ، وإظهار الحق..... ٣٣
الأدب الرابع ـ استعمال المروءة..... ٣٧
الأدب الخامس ـ قبول الاعتذار من المعتذر..... ٤٢
الأدب السادس ـ ينصحون ولا يفضحون..... ٤٧
الأدب السابع ـ التحبب إلى الناس من غير مقارفة المأثم ٥٢
الأدب الثامن ـ كانوا يكرهون التَّلون في الوداد..... ٥٦
الأدب التاسع ـ كانوا لا يعيبون الناس..... ٦٠
الأدب العاشر ـ أنهم أصلحوا سرائرهم بالتقوى..... ٦٤

تم بحمد الله